سكان ليبيا عند اليعقوبى

بحث قدم إلى مؤتمر الجامعة الليبية للتاريخ الليبى

(مارس ١٩٦٨)

إعداد

الدكتور عبد القادر أحمد طلبات

كلية الآداب ــ جامعة عين شمس

تمهيد :

نقف اليوم أمام وصف لواحد من أقدم الجغرافيين المسلمين ، وهو اليعقوبى . المتوفى سنة ٢٨٤هـ ، صاحب كتاب « البلدان » لأنه يصور واقعا كان فى طريقه الى الاندثار . وكان هذا الواقع هو الأساس الذى رست عليه طبقات أخرى عربية أو مستعربة من السكان .

وهذه الصورة فى نظرنا نادرة القيمة عظيمة الشأن ، لأنها لاترد بعد ذلك فى القرون التالية .

وتحمل صورة اليعقوبى فى اعتبارنا ، صورة التحول الذى تعرضت له ليبيا منذ الفتح الاسلامى ، ولذلك نجد فى هذا الوصف صورة من السكان القدماء ، ومن العرب الداخلين الى ليبيا .

ولهذا السبب ، نريد أن نبين معالم هذه الصورة . وهى معالم جمعناها من أخبار كثيرة واردة لدى اليعقوبى ، وبذلنا فى جمعها وتصنيفها كل مانستطيع من جهد .

وبالرغم من أن هذه الصورة وردت عند اليعقوبى ــ وهو جغرافى معروف وكتابه مطبوع ــ الا أن جميع الدراسات الحديثة التى نشرت عن ليبيا ، أهملت معلومات اليعقوبى اهمالا تاما ، واقتصرت على أن تسجل : أن اقليم برقة سكانه

من « لواتة » ، وأن اقليم طرابلس سكانه من « هوارة » ، مهملة سكانهما من العرب كما أهملت اقليم فزان جملة وتفصيلا . كما أنها أهملت ــ أيضا ــ ذكر بطون لواتة ، وبطون هوارة ومنازل كل منهم بالنسبة للقبائل العربية .

وهذه الدراسة ــ على كل حال ــ دراسة محددة بحدود مصدرنا اليعقوبى ولايجب الاقتصار عليها . وانما يجب تتبع التغييرات السكانية من حيث انتشار العرب والبربر فى ليبيا التى طرأت بعد عصر اليعقوبى ، هذاالتغيير الذى أدى بها الى الاستعراب الكامل ، والذى أخذت ملامحه تظهر بشكل واضح فىعصر الادريسى (النصف الأول من القرن السادس الهجرى) .

واليعقوبى الذى اعتمدنا عليه فى هذه الدراسة ، هو المؤرخ الجغرافى أحمد ابن اسحاق بن جعفر ــ والمعروف أيضا بابن واضح .

ولد اليعقوبى فى بغداد فى عــام غير معروف من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)[١] ، ويبدو أنه لم يقم ببغداد أكثر من المدة التى أتم فيها دراسته العليا ، ثم انطلق منها سائحا رحالة الى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، لاشباع نزعة حبه لعلم أخبار البلدان ، وقد صرح هو بذلك فى مقدمة كتابه الجغرافى « البلدان » ــ الذى نعتمد عليه فى دراستنا هذه ــ حيث يقول : « انى عنيت فى عنفوان شبابى ، وعند احتيال سنى وحدة ذهنى بعلم أخبار البلدان ، ومسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ، ودام تغربى » . وبعد أن قضى لباناته من تلك الرحلة الطويلة ضم معلوماته عن البلاد التى زارها فى كتاب « البلدان » فى سنة ٢٧٨ هـ فى قول الدكتور نفيس أحمد[٢] .

وقد ذكر اليعقوبى مادة كتابه ومنهجه فى جمعها ــ وذلك فى مقدمة الكتاب ــ فقال : « فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان ، سألته عن وطنه ومصره ، فاذا ذكر لى محل داره ، وموضع قراره ، سألته عن بلده ذلك فى (نقط بالأصل) لدته (؟) منه ما هى ؟ وزرعه ما هو ؟ وساكنيه من هم من عرب أو عجم ؟ (نقط بالأصل) شرب أهله ؟ حتى أسأل عن لباسهم (نقط بالأصل) وديانتهم

---

(١) كذلك غير معروفة السنة التى توفى فيها ... فقد اختلف المؤرخون فيها ، فهى سنة ٢٨٤ هـ فى قول ، وبعد سنة ٢٩٢ فى قول آخر .

(٢) جهود الجغرافيين المسلمين ص ٤٥ (ترجمة فتحى عثمان) .

ومقالاتهم والغالبين عليه والمنزا (؟) (بياض بالأصل) مسافة ذلك البلد وما يقرب من البلدان والـ (؟) (نقط بالأصل) لرواحل (؟) ثم أثبت كل ما يخبرنى به من أثق بصـــدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقا كثيرا وعالمـــا من الناس فى الموسم [1] وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب ؛ وكتبت أخبارهم ، ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلدا بلدا ، وجنّد مصرا مصرا من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه ، وما يرتفع من أمواله . فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهرا طويلا ، وأضيف كل خبر الى بلده ، وكل ما أسمع من ثقاة أهل الأمصار الى ما تقدمت عندى من معرفته » ثم يعتذر اليعقوبى عن عدم توسعه فى المادة فيقول : « وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية ، ولا يبلغ البشر النهاية ، وليست شريعة لا بد من تمامها ، ولا دين لا يكمل الا بالاحاطة به . وقد يقول أهل العلم فى علم أهل الدين الذى هو الفقة : مختصر كتاب فلان الفقية ، ويقول أهل الآداب فى كتب الآداب مثل : اللغة والنحو والمغازى والأخبار والسير : مختصر كتاب كذا . فجعلنا هذا الكتاب مختصرا لأخبار البلدان ، فان وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا على مالم نضمنه كتابنا هذا ، فلم نقصـــد أن يحيط بكل شىء . وقد قال الحكيم : ليس طلب العلم طمعا فى بلوغ قاصيته ، واستيلاء على نهايته ، ولكن سعرفة مما لا يسع جهله ، ولا يحسن بالعاقل خلافه ، وقد ذكرت : أسماء الأمصار والأجناد والكور،وما فى كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ، ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب ، وأجناس العجم ، ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر ، ومن فتحه من قادة جيوش الاسلام ، وتاريخ ذلك فى سنته وأوقاته ، ومبلغ خراجه ، وسهله ، وجبله ، وبره وبحره ، وهوائه فى شدة حره وبرده ، ومياهه وشربه » . وهكذا نجد اليعقوبى قد استوفى موضوعه الجغرافى من جميع جوانبه : المناخى ، والزراعى ، والسطحى ، والاقتصادى ، والسكانى ، وطعّم هذه المادة الجغرافية ــ أحيانا بالمادة التاريخية الخبرية .

ومع أن مقدمة اليعقوبى لا تشير الى زيارته للمغرب ، فان المستشرق الروسى كراتشكوفسكى يقطع بأن اليعقوبى أقام مدة طويلة بمصر والمغرب ، دون أن

---

(١) أى فى موسم الحج .

يؤيد قوله هذا بدليل [١] . وسـواء أقام اليعقوبى فى المغرب مدة طويلة أو قصيرة ، وسواء زار المغرب أو لم يزره ، فان كتابه يعتبر فى رأينا أفضل كتاب جغرافى اعتنى صاحبه بالناحية السكانية فى هذا القطر الكبير ، فقد ذكر سكان كثير من المناطق وأجناسهم ، وقد استفاد منه كل من جاء بعده من الجغرافيين المسلمين القدامى .

ففيما يختص بليبيا ، عرفنا من اليعقوبى أن سكان ليبيا — فى عصره — من حدودها الشرقية مع مصر الى حدودها الغربية مع تونس . هم : من البربر ، ومن العرب ومن العجم القدم ، ومن الجند القدم والروم ، ومن أخلاط من الناس . وعندما يذكر البربر من لواتة يذكر بطونها ، وعندما يذكر العرب يذكرهم بقبائلهم أو ببطونهم كما ينبين ذلك بعد .

وعندما يتحدث اليعقوبى عن ليبيا يبدأ من حدودها الشرقية مع مصر ، ثم يسير مغربا حتى قابس التى تقع على الحدود الليبية التونسية . (عكس الأدريسى الذى يبدأ من الغرب الى الشرق) .

كذلك يقسـم العقوبى ليبيا الى ثلاثة أقاليم : برقة ، وطرابلس (وفى العقوبى أطرابلس) ، وفزان ؛ وسنتبع نحن هذا التقسيم فى دراستنا .

وطريقة اليعقوبى فى التعريف بجغرافية ليبيا ، أنه يذكر مدن وقرى وحصون كل اقليم ، والمسافة بين كل مكان وآخر ، والمقياس عنده هو « المرحلة » . ونحن لن نعن هنا بالمسافات ، وانما تنصب عنايتنا فقط بالسكان وأجناسهم ومناطق توزيعهم .

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على النسخة التى حققها M. J. De Goeje المطبوعة فى ليدن عام ١٨٩٢ .

وقد أثبتنا التوزيع السكانى — كما ذكره اليعقوبى — على خريطة مرفقة بهذا البحث . اعتمدنا فيها على الخريطة السياحية التى تصدرها شركة«آسو Esso » للبترول فى ليبيا .

---

(١) كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافى العربى : ١٩٥٨/١

برقـــة

يحدد اليعقوبى بداية ليبيا المتاخمة لحدود مصر الغربية « الرمادة » الواقعة غربى « الحمام » الحالية ، فيقول : انها أول منازل البربر ، ويصفها بأنها من كورة لوبية ، ويسكنها البربر والعرب والروم وأخلاط من الناس « وهى أول منازل البربر ، يسكنها قوم من مزاته وغيرهم من العجم القدم ، وبها قوم من العرب من : بلس ، وجهينة ، وبنى مدلج ، وأخـــلاط » ولعل العجم : القدم الذى يعنيهم اليعقوبى هم اليونانيون القدماء الذين هاجروا من بلاد اليونان الى ليبيا فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد وأقاموا أسرة « باطوس » فى القرن الخامس ق . م[١] .

أما من « العقبة » ــ (وهى عقبة السلوم ، أو عقبة السلم) ــ التى تلى « الرمادة » الى « جب الرمل » (وتشمل المنطقة : العقبة ، والقصر الأبيض . ومغاير رقيم ، وقصر الروم ، وجب الرمل) فهى « ديار البربر من : ماصلة بن لواتة ، وأخلاط من الناس » .

وبعد « جب الرمل » (غربا) يقع « وادى مخيل » ، والوادى — كما يصفه اليعقوبى — هو « منزل كالمدينة » وبه المسجد الجامع ، وبرك الماء ، وأسواق قائمة ، وحصن حصين . أما سكانه فهم « أخلاط من الناس » ، وانما « أكثرهم البربر من : ماصلة ، وزنارة ، ومصعوبة ، ومراوة ، وفطيطة » .

ومن « وادى مخيل » الى مدينـــة « برقة » (وهى المرج حاليا) مسافة ثلاث مراحل ، وهى — أيضا — من « ديار البربر من : مراوة ، ومفرطة ، ومصعوبة ، وزكودة ، وغيرهم من بطون لواتة » .

وأما « برقة » . فانه يتبين من كلام اليعقوبى عنها ، أنها اقليم كبير (ولاية) وله عاصمة تسمى « برقة » : « وفى دور المدينة والأرباط أخلاط من الناس » فانه انما يتحدث عن برقة (العاصمة) . ويؤكد هذا قوله أيضا : ولبرقة جبلان شرقى وغربى . أما حين يتحدث عن « برقة » ويقول : « ولبرقة أقاليم كثيرة »

---

(١) مصطفى كمال عبد العليم : دراسات فى تاريخ ليبيا القديم : ص ١٢١

وأن لها من المدن : برنيق وأجدابية ، وأن « تورغة »[1] الواقعة غربى سرت الحالية ، هى من أعمال برقة ، وأنها « آخر حد برقة » فانه انما يتحدث عن برقة (الاقليم) ، وعن حدود الاقليم الغربية بعد أن ذكر — كما أشرنا — حدوده الشرقية .

أما سكان برقة (العاصمة) . فهم « أخلاط من الناس ، وأكثر من بها جند قدم . وقد صار لهم الأولاد والأعقاب » . والراجح أن الجند القدم ، هم الفرق البيزنطية التى استقرت فى البلاد ، وتوارثوا الجندية ابنا عن أب .

أما الجبلان المحيطان بالعاصمة ، فأحدهما شرقى ، والآخر غربى ، وسكانهما من العرب وحدهم . فالجبل الشرقى سكانه من العرب من : الأزد ، ولخم ، وجذام ، وصدف من أهل اليمن . وأما الجبل الغربى ، فسكانه من غرب : غسان ، وجذام ، والأزد ، وتُجَيْب وغيرهم من بطون العرب — (وهذا استثناء من القاعدة التى ذكرها ابن خلدون ورددها كل الدراسين المحدثين ، من أن العرب لا ينزلون فى الجبال ، وانما ينزلون فى السهول) . أما قراها فيسكنها بطون من قبيلة لواتة البربرية : « زكودة ، ومفرطة ، وزنارة » .

وأما برقة (الاقليم) . فيقول اليعقوبى : « ولبرقة أقاليم كثيرة تسكنها هذه البطون من بربر لواتة ، وهى زكودة ، ومفرطة ، وزنارة . وأما مدنه فهما : برنيق (بنغازى الحالية) ، وأجدابية » .

فأما « برنيق » فهى على مرحلتين من برقة (العاصمة) ، وهى « مدينة على ساحل البحر ، ولها ميناء عجيب فى الاتفاق (الاتقان ؟) والجودة تحوز فيه المراكب » . وأما أهلها فهم : « من أبناء الروم القدم الذين كانوا أهلها قديما ، وقوم من البربر من : تحلالة ، وسوة ، ومسوسة ، ومغاغة ، وواهلة ، وجدانة ». ونحن نرجح أن أبناء الروم القدم الذين يعنيهم اليعقوبى ، هم من الجالية اليونانية القديمة التى قدمت الى البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وتركوا بها أعقابهم الى زمنه .

---

(١) يرسمها الأدريسى : تاورغا .

وأما « أجدابية » فان بينها وبين « برنيق » مرحلتان ، وبينها وبين برقة (العاصمة) أربع مراحل . ويصفها اليعقوبى بأنها « مدينة عليها حصن ، وفيها مسجد جامع ، وأسواق قائمة » أما سكانها فهم : « قوم من البربر من : زنارة ، وواهلة ، ومسوسة ، وسوة ، وتحلالة ، وجدانة » ثم يقول : ان هؤلاء الأخيرين ــ أى جدانة ــ « هم الغالبون عليها « أى على المدينة . ويقول أيضا : ان لها أقاليم ، وساحل على البحر المالح ، على مقدار ستة أميال من المدينة ترسوبه المراكب » وأنها « آخر ديار لواتة من المدن » .

أما من أجدابية « الى مدينة « سرت » (وترسم أيضا : صرت بالصاد المهملة) ــ عن طريق الساحل ــ خمس مراحل : مرحلة منها من ديار « لواتة » . والمراحل الأخرى هى على الترتيب : الفاروج (وترسم أيضا : الفاروخ) وقصر العطش ، واليهودية ، وقصر العبادى » .

فأما المرحلة التى من ديار لواتة الى الفاروج ، فسكانها من مزاتة ، « وهم الغالبون عليها » . وأما سكان المراحل الأخرى ــ وأهل مدينة سرت أيضا ــ فهم من البربر من « منداسة ، ومحنحا ، وفنطاس وغيرهم ، وآخر منازلهم على مرحلتين من مدينة سرت بموضع يقال له « تورغة » وهو « آخر حد برقة » . ويقول اليعقوبى : ان مزاتة كلها اباضية . « على أنهم لا يفقهون ولا دين لهم » . وهذا السب من اليعقوبى ــ ناشىء عن المنافسات المذهبية ، والا فان الاباضية ــ فيما نعرف ــ أهل دين ومن أقدر المسلمين على نشر الاسلام ، وعلى التوسع فى الهجرة » .

ومن مدينة « سرت » الى ودان ، مما يلى القبلة ، أى جنوب سرت ، خمس مراحل وسكان هذه المنطقة « قوم مسلمون يدعون أنهم عرب من اليمن ، وأكثرهم من مزاتة ، وهم الغالبون عليها » .

ووراء « ودّان » ــ مما يلى القبلة أيضا بلد « زويلة » ، وسكانها » قوم مسلمون اباضية ، وبها أخلاط من أهل خراسان والبصرة والكوفة » ؟

ووراء « زويلة » على خمس عشرة مرحلة منها ــ مدينة يقال لها « كوار » وسكانها « قوم من سائر المسلمين من سائر الأحياء » ولكن « أكثرهم بربر » .

وبين « زويلة » ومدينــة « كوار » ــ ومما يلى « زويلة » الى طريق « أوجلة » و « أجدابية » ــ قوم يقال لهم « لمطة » وهم « أشبه شيء بالبربر »، وقد تفيد هذه العبارة أن «لمطة» ليست من البربر الخلص أو الصرحاء ، والراجح أنهم بربر اختلطوا بغيرهم ، والراجح أيضا أن يكون اختلاطهم بالعرب بعد الفتح ، والمعروف أن « لمطة » نزلت ــ فيما بعد ــ ناحية « قابس » و « شط الجريد » .